بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

هل نفهم ما يحدث؟

يُقَرِّرُ كثُير منهم **أن الوعيَ زاد ويزيدُ، وأنَّ جيلَ اليومِ لن يُفعلَ به ما قد فُعلَ بالذين من قبلهِ لشدة وعيه. فهل حقًا زاد الوعي؟!، هل بات لدينا وعيٌ يمنعُهُم من أن يفعلوا بنا ما فَعلوه بالذين من قبلنا؟!**

أحاول الإجابة من خلال استعراض الأحداث الرئيسية التي مرت بالأمة منذ تعرضت للاحتلال الغربي، وأتحدث عن مصر، وهي، وإن كانت حالة واحدة إلا أنها، تصلح للتعميم وذلك لتشابه التجارب في الأماكن الأخرى من بلاد المسلمين.

الحملة الفرنسية على مصر والشام:

جاء الفرنسيون إلى مصر ورحلوا سريعًا، واختار الشعب مَن يحكمه، وبدأت مصر تبني نفسها بسواعد أبنائها، وأرسلت البعثات إلى الدول "المتقدمة"، وشيدت الطرق والكباري، وشقت الأنهار واستصلحت الأراضي، وأنشئ جيش قوي وسّع نفوذ حكام مصر حتى كاد يبتلع الدولة العثمانية. ثم ماذا؟!

بعد أن انتهت التجربة بمئة وخمسين عامًا بدأنا نفهم شيئًا آخر.. بدأنا نرى الصورة بشكلٍ آخر غير الذي قيل وقتها وبعدها لمئة وخمسين عامًا!!

بعد قرن ونصف بدأ الحديث عن أننا لم نهزم الفرنسيين وإنما رجعوا لمشاكل تتعلق بتبعات الثورة في دولتهم، ورجعوا لحصار الإنجليز لهم في مصر، فقد دمَّر الإنجليز أسطولهم البحري بعد دخولهم مصر في معركة (أبو قير البحرية1798م)، وجلسوا لهم في البحر، ثم حملوهم كالأطفال وأعادوهم إلى فرنسا؛ ورجعوا لهزيمتهم في الشام بعد أن تجمع عليهم أهل الشام ومعهم الأتراك وخلفهم الإنجليز يمدونهم من البحر، ورجعوا بعد موت كثير من جنودهم بالطاعون؛ وفهمنا أنهم

جاءوا للقضاء على صحوة كانت قد بدأت لتجديد الإسلام في الأمة.. صحوة بأدوات المجتمع الطبعية: المتمثلة في علماء الشريعة (الأزهر)، ومشاركة أهل الحل والعقد (أصحاب النفوذ) وأهل الرأي (الحكماء وأصحاب البصيرة في الأمور)، بمعنى أنهم قضوا على حركة تجديد كانت قد بدأت بالفعل؛ وفهمنا أن شباب الفرنجة (نابليون ورفاقه) وضعوا الأساس لتغيير المجتمع وتغيير نموذج الحكم؛ فتغيرت قيادة المجتمع من علماء الشريعة وأهل الحل والعقد إلى آخرين لهم اتصال بالسلطة الجديدة أو بالغرب (تجارة الغرب، وبعثات الغرب التبشيرية/ التعليمية/، وسفارات الغرب) وكانوا نصارى في الغالب. حتى علماء الشريعة أنفسهم تغيروا فظهر حسن العطار وتلميذه رفاعة الطهطاوي بدل عمر مكرم، وبدأت مزاحمتهم بمن تعلموا في البعثات العلمية، أو المتعلمين على مخرجات البعثات والنقولات عن الغرب. والمحصلة أننا بدأنا السير في طريق جديد... كلنا (السلطة، والنخبة، والمجتمع) دخلنا طريقًا جديدًا.. تغير مسار الأمة. **بالفعل فهمنا ما حدث.. بالفعل زاد الوعي لدينا ولكن بعد قرنٍ ونصف... جاء الوعي متأخرًا**.. بعد أن قضوا حاجتهم وانصرفوا.. بعد أن أخرجوا منا من أحبهم وانتسب إليهم**!!**

الثورة العرابية:

قامت الثورة العرابية تدافع عن ضياع مقدرات البلاد، وتنتصر للفقراء والمهمشين، وبعد أن رحل عرابي بسنين عددا فهمنا شيئًا آخر. فهمنا أن الفرنسيين لم يكونوا أعوانًا لنا على الإنجليز، كما قيل عن "بلنت" وزوجته، وعن "فرديناند دي لسبس"؛ وفهمنا أنهم **شجعوا عرابي على الثورة وهم يعلمون ضعفه كي يقضون عليه وعلى من حوله .. شجعوه على الخروج قبل الاستعداد لتقتل بذرة التمرد والبناء الصحيح، تمامًا كما فعل أبو جعفر المنصور مع "محمد النفس الذكية"** (علم أنه عازم على الخروج عليه فدس إليه من حثه على الخروج قبل أن يستعد، فخرج دون استعداد ومن ثم هزم)؛ وبعد عشرات السنين فهمنا أن برقيات السفير الفرنسي (تحدث عنها محمد عبده وغيره) لتشجيع الثورة والثائرين كانت **دفعًا للضعفاء الغافلين.. الحمقى.. قليلي الوعي لآتون معركة لن يصبروا فيها ساعة، ولن يرجعوا منها بعافية، ولن تُبقي لهم أثرًا صالحًا مصلحًا**؛ وفهمنا أن الفرنسي فرديناند دي ليسبس (مهندس

القناة) كاذب وأن أعداءه من بني ملته (الإنجليز) أقرب إليه منا. ولكن: متى فهمنا؟!! وكيف أننا فهمنا شيئًا آخر غير الذي كنا نفهمه وقت الحدث؟!!

فهمنا ما فعل بنا.. وبعد أن فعل بسنين عددا. فكان أول ما كتب عن **الكتلة المحركة لعرابي وعبده والأفغاني ومن حولهم بشكل مباشر أو من خلال النصائح** هو كتاب الدكتور محمد محمد حسين (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) وكتابات الأستاذ أنور الجندي، ورافقهما كتابات ألبرت حوراني التي بينت أن هؤلاء نقلوا أفكارهم عن الغرب وصنعوا الجسور التي عبر من عليها الغرب لحصوننا الفكرية، وجل هذه الكتابات ظهرت في نهاية القرن العشرين. فهمنا بعد قرن من الزمن أن كتيبة من الغربيين والنصارى صنعوا المشهد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين وحركوه. فهمنا بعد أن دخل الإنجليز وقضوا حاجتهم وأخرجوا منا من أحبهم وانتسب إليهم!!

الثورة العربية 1913:

هاج طلّاب الحرية السياسة، ينددون بالاستبداد والمستبدين، ويثوّرون الأمة ضد الخلافة العثمانية بدعاوى شتى، يقولون: حرية، ويقولون: وطنية، ويقولون: قومية عربية، ويقولون خلافة عربية. والمتتبع لتفاصيل الأحداث– وخاصة من خلال السير الذاتية لمن نشطوا في هذه المرحلة– يجد أنهم كانوا على يقين بأن التغيير الذي يريدون قاب قوسين أو أدنى!!

اتصل العدو بالجميع وأمدهم بأسباب ثقافية ومادية حتى اجتمعوا على الأتراك لا ليساهموا في محاولات إصلاح الخلافة الإسلامية، وكانت تحاول بكلتا يديها من أواخر القرن الثامن عشر (1).

(1) ينظر: "الشرق الأوسط الحديث الجزء الأول: طلائع الإصلاح وتبدل العلاقات مع أوروبا 1789–1918م"، ألبرت حوراني(محررًا)، ترجمة: أسعد صقر، (دمشق، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1996م)، ص47- 141.

ظنوا(2) أن باستطاعتهم امتطاء ظهر العدو وصولًا لأهدافهم.

كانوا أفرادًا، وخاصة دعاة الإصلاح من المنتسبين للعلم والثقافة. وكانوا محدودي القوة (3).

وكان المشهد أكبر من مساحة رؤيتهم ونفوذهم.

انتهى الجميع إلى حيث لا يريد الجميع. فلا نالوا حرية، ولا خلافة إسلامية، ولا قومية عربية. ولا النصارى الذين عاون بعضهم الاحتلال بشكل مباشر تحسن حالهم، بل صار حال مجموع النصارى بعد انتهاء الخلافة أسوأ من حالهم أيام قوة الخلافة، وانتهى السلام الداخلي بينهم (فتش عن الأمة القبطية)، وهنا حديث عالٍ منتشر عن خسائر الأقليات، وعن الطائفية والمذهبية، وأنها أحد أدوات العلمانية في تفتيت المجتمعات الشرقية، وتستخدم- كما الجماعات- في صنع "الفوضى الخلاقة" والتي تستخدم (أي الفوضى الخلاقة) في تفكيك المجتمعات لإعادة بنائها من جديد على أسس علمانية، بمعنى أن الأقليات الدينية والمذهبية

---

(2) أعني هنا الإصلاحيين من الإطار الديني كمحمد عبده وباقي أعضاء "العروة الوثقى"، والإصلاحين من الإطار العلماني القادم من البعثات العلمية كمصطفى كامل ورفاقه. والحكام كالشريف حسين.

(3) النظر في مستوى الأدوات مهم جدًا، سواءً أكانت أدوات مادية، مثل: المناصب التي شغلها الثائرون (وعلى سبيل المثال: منصب المفتي الذي استحدثه المندوب السامي البريطاني اللورد كرومر لمحمد عبده، والدعم الذي تلقاه محمد عبده من كرومر عمومًا)، والمحافل التعليمية التي تخرج منها هؤلاء (البعثات للدول الغربية وخاصة بعد تحول البعثات من المجال العسكري لدراسة العلوم الاجتماعية)، والأدوات التي عملت على نشر الثقافة الغربية كالصحافة والمسرح والسينما، ودور النشر. أم الأدوات المعرفية وأعني بها المفاهيم الرئيسية التي حركت هؤلاء فقد كانت منظومة الأفكار (النسق الفكري) الذي حرّك النخبة الثائرة يومها غربي كله، أو جله، ورصد ذلك ألبرت حوراني في كتابه "الفكر العربي في عصر النهضة". وذلك أن حوراني أرخ لكل مرحلة بمن برز فيها من الأشخاص وأتى بأفكار كل بارز وبين أنها نقل عن الغرب.. بمعنى أن الغرب صنع الرموز أو أثر فيهم. أو أن رموز المرحلة تحركت مدفوعة بثقافة غربية، أو أن آلة الدعاية والإعلام الرسمية أبقت من أصحاب المعرفة من وافقها، أو من سهل لها التحرك نحو أهدافها (إعادة هيكلة المجتمع والسلطة وفق منظومة الغرب العقدية).

وإذا قلنا أن القوة قوة أدوات، وأن الأدوات هي الفاعل على الحقيقة وخاصة في نموذج الدولة القومية الذي تستطيع فيه السلطة التحكم في كل شيء تقريبًا. فإن حراك هذه المرحلة لابد أن يُؤخذ في سياق الصناعة الغربية للأحداث. سواءً الثقافة التي (وخاصة الذين كانوا في السلطة كالشريف حسين، فضلًا عن الذين لم يكونوا في السلطة).

والإثنية استخدمت من قبل العلمانيين لإحداث ثورة اجتماعية (ما يقال له إعادة البناء الاجتماعي) ولم يحصلوا على شيءٍ مما يريدون.

وإن أوضح مثال يبين هذا الفهم هو التأمل في سياق القومية العربية منذ نشأتها أفكارًا تدعو إلى هوية جديدة (عربية) إلى نهايتها أفرادًا مواليين لعدوهم (الليبرالية الغربية كما عزمي بشارة وإبراهيم عيسى) مرورًا بمرحلة الكيانات التي تأسست بخلفيات قومية. فالملاحظ أن الفكر القومي العربي بدأ من النصارى واستمر داخلهم وحدهم قرابة نصف قرن حتى جاءهم أهل الطوائف، وكانوا يصارعون مثلهم لإسقاط الخلافة، ثم لحق بهم السمّاعون لهم من أهل السنة. ويمكن تتبع ذلك من خلال الفاعليات والأسماء التي ظهرت في سياق القومية العربية، وهم: بطرس البستاني، وسليم البستاني، وناصيف اليازجي، ومنيف خوري، ونجيب عازوري، ثم قسطنطين زريق، وميشيل عفلق،.. وأول من التحق بهم هم أبناء الأقليات مثل: زكي الأرسوزي، بعد نصف قرن، تقريبًا، من حديثهم عن القومية العربية. والنصارى القوميون هم الذين أدخلوا التحديث كشرط للنهوض (كتابات قسطنطين زريق تحديدًا).

وحين نتأمل في مشهد "القومية العربية" منذ بدأ إلى أن اختفى، نجد أن أفكار القوميين العرب (المؤسسين والذين من بعدهم) لم تتحول إلى واقع مستقر. فقط عملت هذه الأفكار وما ترتب عليها من حراك في سياق الحشد ضد نموذج الخلافة، وعملت-أيضًا- في سياق فصل العالم العربي عن العالم الإسلامي. وعمليًا لم تشيد قومية عربية بديلًا للخلافة العثمانية(4).

ففي مستوى السلطة تحول العرب- والعالم الإسلامي كله- من نموذج الخلافة إلى نموذج الدولة القومية، وفي المستوى الثقافي تحول العالم الإسلامي من السياق الإسلامي المحافظ للسياق الليبرالي

---

(4)حتى الكيانات القومية الصغيرة التي حاولت أن تتشكل في بعض جنبات العالم الإسلامي لم تستطع أن تتواجد عمليًا، كانت بدايتها من "دولة قومية" كالمغرب العربي حيث أن المغرب العربي كان يتهيأ لأن "يستقل" كتلة واحدة، وكان لهم مجلسًا ثوريًا موحدًا في مصر، ثم استقلوا "دولًا" وتناحروا فيما بينهم صبيحة استقلالهم. وكذلك المسلمين في الهند، حيث انشق البنجال عن الباكستان.

فكان عصر ما بعد "الثورة العربية" هو العصر الليبرالي لا القومي العربي الذي يعظم النبي، صلى الله عليه وسلم، والعربية، كما ادعوا في كتاباتهم. وهذه منطقة تفكير ينبغي أن تأخذ حقها من المهتمين. ينبغي أن نطرح أسئلة عن السياقات الحقيقية، وعن الفاعلين الحقيقيين، وعن هامشية دور الأفكار الثورية تلك التي تطفوا على السطح ثم تختفي مخلّفة وراءها غير ما كانت تطلبه(5). أو بالأحرى علينا واجب دراسة كيفية استغلال المتحمسين من قبل من يملك رؤية أوسع وأدوات أقوى وأكثر، وهو هنا المحتل الغربي الذي استغل الطوائف، والثورات وما تولد عنها من مد عروبي في إنهاء الخلافة العثمانية ثم تحويل العالم الإسلامي لمذهبه هو (الليبرالي) ثم إلى نموذجه في الحكم (الدولة القومية). حتى الكيانات القومية الصغيرة التي حاولت أن تتشكل في بعض جنبات العالم العربي والإسلامي لم تستطع أن تتواجد عمليًا ككيان قومي (عربي أو غير عربي). فقد ابتدأ الجميع من "دولة قومية" لا من اتحاد عربي قومي. وعلى سبيل المثال: المغرب العربي. حيث أن المغرب (الجزائر والمغرب حاليًا) كان يتهيأ لأن "يستقل" كتلة واحدة، وكان لهم مجلسًا ثوريًا موحدًا في مصر، ولم يحدث ما أرادوا (أو ما أعلنوا عنه) فقد استقلوا "دولًا" وتناحروا فيما بينهم صبيحة استقلالهم. وكذلك المسلمين في الهند، فقد استقلوا عن الهند في هيئة "دول قومية" تبعًا للنموذج الغربي، ولم يستقلوا كقومية ذات هوية إسلامية في مقابلة الهوية الهندوكية التي سيطرت على الحكم وألجأتهم للاستقلال، استقلوا في السياق الغربي الذي يستهدف تقسيم العالم- إسلامي وغير إسلامي- إلى دويلات، مع أن فكرة الاستقلال كانت ذات هوية قومية هندية إسلامية ابتداءً.

وما يهمني رصده هنا هو أن الذين في الحدث كانوا في سياق آخر من الفهم والفعل غير السياق الذي يبنيه صانع الحدث (الاحتلال الغربي)، وأن الأمر تم على ظهر عشرات السنين، وفي مسارٍ اجتماعي وسياسي غير رجعي Irreversible.

استفاق الجميع فوجدوا أنفسهم في مكانٍ بعيدٍ وفي اتجاهٍ غير الذي يريدون، وعلى ما يكرهون. وفي

(5) ينظر للكاتب "هل نفهم ما يحدث" موجود مقال ومحاضرة على اليوتيوب، وينظر: "ثورة تاني؟!!"

هذا السياق (صنع الطائفية، واستنفار الأقليات، والمذاهب) **جاءت الجماعات كأحد أدوات تفكيك الموجود وإعادة البناء على هوى الغربيين!!**

إن كل ثورة تتلو علينا درسًا واحدًا خلاصته: أن الثورات الشعبية أحد أدوات الغرب لتطوير المجتمعات في اتجاهه هو. وانظر إلى حال الأمة قبل بدء الثورات (في القرن الثامن عشر) وانظر إلى حالها اليوم، فالذين تجمعوا في الميادين "ثائرين" يرفعون الشعارات باللغة الإنجليزية.. يتحدثون لمن فرّق جمعهم وشتت شملهم وغلبهم على ما في أيديهم.. يستعين بعضُهم بالعدو على بعضهم.. بمعنى أن الصراع داخلي. الصراع في المجتمع وليس في السلطة وحدها كما قد كان، فقد حُسم أمر السلطة للعلمانية والطحن الآن في المجتمعات.

مشاريع التنمية:

لا يتعلق أمر تأخر الوعي بما يحدث بالجانب السياسي والثوري (عسكري وغير عسكري) فقط، بل بالجانب الاجتماعي أيضًا. ونشير إشارات:

سؤال النهضة بشقيه (لماذا تخلفنا؟، وكيف ننهض؟)، أجاب عنه ثلاثة: الإسلاميون، والعلمانيون، وقوم خلطوا صالحًا وآخر سيئًا.. أولئك الذين يتجمعون تحت مظلة "العصرانيين".

وحاول العلمانيون–باعتبار أنهم هم الذين مُكنوا من السلطة والمجتمع– النهوض مرة بعد مرة، وفي كل مرة يفشلون... في كل مرة يحاولون فيها النهوض يقعون على أعجازهم ويُتركون هامدين يصيحون من الألم، يضحك عليهم من يمر بهم. لم ينجحوا مرة. مع أنهم في كل مرة يأتون بوصفة "التقدم" و"الرقي" من عند "المتقدمين" في الشرق أو في الغرب!!

وحين تفتش في التفاصيل تجد أنهم يفشلون بعوامل خارجية بالأساس، والمختصون يقولون: العامل الخارجي لا يعمل إلا بمعاونة عوامل داخلية موافقة له. ولكني أضيف: أن العوامل الخارجية المفسدة صنعت عوامل داخلية موافقة لها. فالمفسدون في الداخل (في السياسة، والثقافة، والمال...) جلهم صناعة خارجية. وهذه بعض محاولات التنمية الجادة التي وقعت على أعجازها تصيح وتجمّع الناس حولها يتندرون ويتعظون:

أراد محمد علي دولة حديثة له ولأبنائه، وكان جادًا حريصًا على ما يريد، وأمدوه (سليمان باشا الفرنساوي، والبعثات العلمية،..)، وأراد بعض أبنائه من بعده تطوير مصر لتكون كأوروبا، ثم ماذا؟ الفشل. والاحتلال مرة ثانية. دورة جديدة في دهاليز الفقر وسراديب الألم والحسرة.

وصدروا للشعوب العربية فكرة الاستقلال، وبالفعل قاتل المخلصون بأيديهم وعقولهم من أجل الاستقلال، وبعد عشرات السنين تبين أن الاستقلال لا يعدوا أن يكون تفتيت وتقسيم للأمة الإسلامية. تبين أن (الاستقلال) هو مرحلة جديدة من التبعية. وكان شرط السيد الجديد (الأمريكان) أن يتم تعميم (الدولة القومية) كصيغة حكم على الجميع، وحدثت التحولات في السلطة والمجتمع بأيدينا.. بأموالنا.. ولم يفهم بعضنا إلا بعد عشرات السنين. والعجيب أن كثيرًا منا دخلوا التيه جادين متعصبين للكيانات الصغيرة الجديدة...!!

وصدَّروا للدول القومية الحديثة فكرة الاعتماد على الذات، وهم يعلمون جيدًا أن أي دولة صغيرة لا تستطيع الاعتماد على ذاتها. وفي ذات الوقت كانوا يدشنون في بلدانهم شيئًا آخر مغاير تمامًا لما يصدروه لنا، وهو الاعتماد المتبادل المعقد، ولم نفق إلا بعد أن فشلت تجربة الاعتماد على الذات وخرجنا منها على حال أسوأ من التي كانت أيام الاحتلال القديم.

نعم حاول العلمانيون أن ينهضوا أكثر من مرة، وفي كل مرة يفشلون، وبعد كل فشل يتقدم إليهم الغربيون بوصفة جديدة للنمو، ويأتون إليها مسرعين فرحين مسرورين، ثم بعد أن "نشربها" يتبين أنها (مقلب دولي). مثل: ثورة شباب العسكر 1952م، وانفتاح السادات، وخصخصة مبارك. نقوم من الفقر لنقع فيه... **وما يحدث الآن هو حلقة من سلسلة الفشل التي تُصدّر للأمة تحت مسمى الإصلاح، فالآن تسلط القائمون على النظام العالمي على الدول الصغيرة وينفذون رؤاهم التي تستهدف السيطرة على الإنسان والموارد والأسواق وجعل كل ذلك في خدمة أهدافهم هم[6].**

[6]من العلماء الغربيين الذين عنوا بتوضيح توغل السلطة العالم الإيطالي المعاصر جورجيو أجامبين (من مواليد 1942م، أستاذ فلسفة الجمال بكلية العمارة بفينيسيا)، ينظر: "**حالة الاستثناء**"، جورجيو أجامبين، ترجمة: ناصر إسماعيل، (القاهرة، مدارات للبحث والنشر، 1436هـ/2015). والعالم البولندي زيجمونت باومان، ينظر: "**الحداثة والهولوكوست**" لزيجمونت باومان، ترجمة: حجاج أبو جبر و دينا رمضان، (القاهرة، مدارات للأبحاث والنشر، 1435هـ/2014م)،

والسؤال: هل نفهم ما يحدث؟!

نفهمه بعد أن يحدث، ومن يفهم منا حال الفعل قلة قليلة لا تستطيع تغيير مسار الفعل لعدم امتلاك قدر كافٍ من الأدوات لإيجاد فعل جديد...

الأنساق المغلقة(الجماعات)!!

والمقصود بها الجماعات الإسلامية المنظمة كالإخوان المسلمين وحزب التحرير والحركات السلفية المسلحة، والتكتلات السلفية العلمية المنظمة وشبه المنظمة. تمثل هذه المرحلة كلها حالة من الوعي المتأخر، أو أحد مظاهر التيه الذي دخلته الأمة الإسلامية، أو أحد شهود العيان على توظيف الحركة الإسلامية من قبل خصومها...

كنا أمة فصرنا جماعة. على أمل أن تتضخم الجماعة فتصبح أمة. فكان أن أصبحت الجماعة الواحدة جماعات (أنساقًا مغلقة/ أحزابًا) وانشغل كل بأخيه. والمشهد الأكثر ووضحًا على أن كل جماعة لن تبرح مكانها حتى تحسم مع أختها هو مشهد الجماعات المسلحة التي تقتتل وليس بينهم خلاف عقدي/ أيدولوجي أو منهجي .. فقط اختلاف (الأمير). **ولابد من الخروج من صيغة الجماعات/ الأنساق المغلقة. والحل–كما قدمت مرارًا– في التحول إلى النخب المتخصصة، وقد شرحت هذا الحل في عددٍ من المقالات تحمل في عنوانها هذه الكلمة (النخب المتخصصة).**

ثالثًا: سيد قطب والنمو العضوي!!

والعالم الفرنسي "ميشيل فوكو" (1926م–1984م)، ينظر: "**المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن**" لميشيل فوكو، ترجمة علي مقلد، (بيروت، مركز الإنماء القومي، 1990م). وهذا النوع من النقد الذي يقدمه هؤلاء يبين أن الملأ في المجتمعات الغربية يحاولون تطويع الناس والتحكم في عاداتهم وسلوكهم بأدوات شتى، كالمؤسسات المجتمعية بعمومها وليس السجن فقط (وهذا ما يذهب إليه ميشيل فوكو في كتابه المراقبة والمعاقبة)، أو من خلال تعميم حالة الاستثناء.. تلك التي يقِلُ، أو ينعدم، فيها استخدام القانون وتجرى الأحكام العرفية من أجل مزيد من السيطرة والتوجيه للناس؛ أو من خلال تعميم ظرف الاستثناء (وهذا ما يقوله جورجيو أجامبين)، أو من خلال تعميم الهولوكوست ضد الشعوب قدر المستطاع، وهذا ما يقوله "زيجمونت باومان". والمحصلة هي احتقار الإنسان واستعباده.

في حسّي وحس كثيرين يبدو الأستاذ سيد قطب-رحمه الله- عاليًا عطرًا بهيًا، وحين تبحث عن سبب ذلك تجد عددًا من الأسباب:

منها: **التصاقه بالقرآن الكريم**، فقد تفيء سيد قطب ظلال القرآن فأصابه وابل من بركته. والقرآن الكريم روح من الله (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) (الشورى:52)، كل من قاربه دبت فيه الروح، والقرآن الكريم- كما وصفه الله في أربع مواضع من كتابه- مباركٌ فكل من ورد القرآنَ أصابتُه بركته.

ومنها: **أنه تحدث إلى المهزومين والمستضعفين عن العزة والاستعلاء بالإيمان**، وحديث العزة والاستعلاء حديث شجي يطرب من يسمعه. يأخذه من واقعه شديد المهانة إلى رياض عطرة كأحلام اليقظة للمعتقلين في الزنازين الفردية، مع أنه عمليًا يتحول إلى حالة من الهروب والاغتراب خارج سياق الزمان والمكان، والعزلة الشعورية قد تتطو إلى نفاق مجتمعي وقد تتطور إلى عزلة مكانية، ما يعني الانسحاب من الواقع وتخليته للرافعين للباطل الدافعين له في وجه أهل الإيمان.

ومنها: **السياق الزمني الذي خرج فيه الأستاذ سيد قطب** فقد ظهر في سياقٍ من الصراع متعدد المستويات بين الدول العربية حديثة النشوء، وكانت مصر-التي تضطهده- في صراع مع عددٍ من دول الجوار العربي والتي بدورها دعمت الأستاذ كأحد أدوات الشجب على النظام الناصري الذي تصارعه، ومما يدلل على صحة ذلك أن واحدة من هذه الدول (السعودية) كانت تطبع وتوزع بالمجان كتب الأستاذ سيد؛ بل وتدرسها في مدارسها وجامعاتها ضمن مادة الثقافة الإسلامية، وبعد أن انتهت فترة الصراع بين الدول القومية حديثة النشوء واستقرت الحدود الجغرافية واستقرت الحدود الافتراضية نسبيًا غيروا رأيهم وأحضروا من تطاول على الأستاذ وأساء الأدب في حقه. وهو السياسي المعاصر لا يمكن أن يكون متدينًا ولا يثق في متدينٍ، بل يرى المتدين مصارعًا على السلطة بأداة الدين، وهي السياسة المعاصرة لا تعرف

التدين إلا أحد أدوات الصراع على السلطة والنفوذ الاجتماعي وإلى الآن لم يخرج التدين عن هذا المجال إلا قليلًا.

ومنها: أن الأستاذ سيد قطب-رحمه الله- **تحدث بخطاب عام يصلح للجميع** ولم يتحدث عن قضية تفصيلية تختص بنطاق جغرافي ضيق أو موضوعٍ فرعي. والتميز-كما يبدو لي- يحدده أمران: منطقة العمل والإمكانات الشخصية لمن يعمل. فمن يعالج قضية تفصيلية تتعلق بمساحة ضيقة جغرافيًا ليس كمن يتحدث للأمة كلها في قضايا تهم الجميع، ومن يتحدث من على منبر مصر في الستينات ليس كمن يتحدث عن منبر في دولة أفريقية نائية في ذات الفترة.

ومنها **اتباع الأسلوب الأدبي شديد الرقي** لا الأسلوب الأكاديمي المتعالي المعقد. والأدب يطرب ويحمل المعاني إلى الأعماق بهدوء ويسر، بخلاف العبوس المتغطرسة (اللغة الأكاديمية) التي تستفز من يقرأ وتنفره.

ومنها: **حالة التغيير التي كانت تمر بها المجتمعات المسلمة** في مرحلة ما بعد الخلافة.. مرحلة تكون الدولة القومية ومحاولة عرقلتها لاستعادة الخلافة مرة أخرى، وفي مراحل التغيير يحتشد الناس وتسود حالة من الحماسة، بمعنى أن الكل حضور حول خطاب التغيير ويتجهون أكثر لمن يحدثهم عن العزة والكرام وقرب النصر.

ومنها: **صمود الأستاذ سيد** في وجه سلطةٍ جائرة، فنصف الناس أعداء من يحكمهم كما قال عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-، والناس تعظم من يعاند وتتخذه مثلًا وإن كان كافرًا كجيفارا مثلًا. وشرك العوام شركٌ حسي.. يريدون قائدهم وكبيرهم ومتبوعهم (إلههم) ماثلًا بين أيديهم.. قريبًا مكانًا منهم، ولذا يميلون إلى تمثيل الإله في (طوطم) أو صنم أو بيت أو قبرٍ أو شخص، وجلهم يأتي الشرك فمقل ومكثر. وترميز بعض الأفراد وجعلهم متبوعين في كل حال.. وجعل كلامهم صواب كله نوع شرك. ويلجأ سدنة الأنساق المغلقة وقادة المجتمعات في واقعنا المعاصر إلى الترميز كوسيلة سهلة لقيادة الناس، فالترميز (التصنيم) أحد أهم الأدوات التي يتبعها الجميع بوعي أو بدون وعي لقيادة الناس وتوجيههم، وقد أشار سيد قطب نفسه إلى هذا المعنى

في الظلال أكثر من مرة. وهذه الوسيلة حاضرة بقوة في الأنساق المغلقة (الجماعات الإسلامية) ولك أن تتدبر حال صغار السن والعقل مع شيوخهم والقيادات التاريخية وحال الشيوخ معهم وهم لا ينهونهم!!

وأهم ما يمكن أن يفسر ظاهرة سيد قطب التي انتشرت في الفترة الماضية هو وجود جماعات منظمة أو شبه منظمة (أنساق مغلقة) تدعمه؛ فقد كان ثمة من ينتظر كلماته ليحملها هنا وهناك بين آلاف من الذين أوقفوا أنفسهم على نشر وعي ديني وسياسي في المجتمعات المسلمة. بمعنى أنه حدث تبادل ضمني للمنفعة بين سيد قطب وهذه المجموعات الدعوية التي تأخذ شكل أنساق مغلقة (تنظيمات وشبه تنظيمات): هو زوَّد القائمين على الأنساق المغلقة بوقودٍ فكري يناسب شهيتهم في تجنيد الأعضاء وحثِّهم على البذل والتضحية من أجل الأفكار التي يتبناها النسق المغلق (الجماعة) الذي ينتمون إليه وزوَّدهم-أيضًا- بنموذج عملي للصمود في وجه السلطة الجائرة؛ وهم وفروا لكلماته انتشارًا. ولذا حين انتشر كتاب معالم في الطريق بعد طباعته بأيام استدل عبد الناصر بسرعة الانتشار على وجود تنظيم بجوار سيد قطب عمل على نشر الكتاب بهذه السرعة؛ نعم الجماعات الداعمة لها دور كبير في صناعة الرموز وخاصة في هذه الأيام، فكل مشهورٍ منتشر بين الناس يتركب من شيئين: إمكاناته الشخصية والأدوات الإعلامية التي حملت أفكاره إلى الناس، وفي الجملة القوة قوة أدوات وقد أتيت هذا المعنى كثيرًا ولا أريد أن أكرر. فقط أريد أن أقف قليلًا حول العلاقة بين سيد قطب والتنظيمات الإسلامية التي عاصرته ولحقته وأدور حول هذه العلاقة وأعيد النظر فيها مرة بعد مرة، ونلقي عليها الأسئلة نحاول أن نستوضح أهم ما فيها ومساراتها **بحثًا عن إجابة على سؤال رئسي: هل كان سيد قطب مجددًا؟**

سيد قطب والأنساق المغلقة:

ظهرت الأنساق المغلقة (الجماعات الإسلامية)، كوسيلة لتكوين كتلة تسعى إلى استعادة الحياة الإسلامية من جديد، وأجهضت التجربة الأولى (الإخوان المسلمين نسخة الأستاذ حسن البنا)

مع أول صدام لها مع السلطة، وظلت الجماعة مبعثرة بعد البنا على خلفية اختيار مرشد!! ولم تتجمع إلا بعد انهيار السلطة الحاكمة، ثم اجهضت بأيدي السلطة مرة ثانية (الصدام مع عبد الناصر) وتوارى ذكرها خلف جدران الإهانة والحرمان (السجون)، ولم يثمر إلا الذين لم خرجوا عن النسق المغلق وعملوا منفردين كالشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق ومحب الدين الخطيب وعلماء السلفية، حتى جاء الأستاذ سيد قطب وبلور نظرية جديدة أعادت النسق المغلق فتيًا مرةً ثانية، وهي نظرية الفئة المؤمنة. يقول: مجتمع مسلم في وجه الجاهلية المعاصرة التي تحكم العالم، وأن المجتمع المسلم يبدأ من فئة مؤمنة حق الإيمان، وأن النصر لا يحتاج لأكثر من تصحيح العقيدة، فإن وجدت الفئة المؤمنة حقًا نزل النصر!!

ولا أريد هنا مناقشة الفكرة، ولكن أريد أن أشير إلى أن فكرة النواة الصلبة مثَّلت منطلقًا لعامة الإسلاميين بعدها. استعذبوها ودخلوا فيها دون أن يتأملوها: من أين جاءت.. كيف تكونت؟، وما مآلاتها؟، مع أنهم يدَّعون التدبر ويدعون إليه!!

تحرك بعضهم إلى تكوين (فئة مؤمنة/ نواة صلبة/ جماعة) تأخذ بأسباب النصر التي شخصها وقتها بالاستيلاء على السلطة بالسلاح أو الثورة الشعبية (الجماعات المسلحة)؛ وتحرك بعضهم إلى تطوير الفئة المؤمنة إلى مجتمع مؤمن بعيد عن الجاهلية فدعى إلى تكفير العوام وهجرانهم لتكوين مجتمع مؤمن خارج الواقع المعاصر يزاحمه ويناطحه ثم يبتلعه!! (التكفير والهجرة والسماويون)؛ وتحرك بعضهم إلى تصحيح العقيدة كضرورة من ضروريات تكوين الفئة المؤمنة فتحدث عن التصفية والتخلية ثم غرق في التفاصيل وخرج من سياق الزمان والمكان (السلفية العلمية). وهكذا مثَّلت نظرية سيد قطب متركزًا للذين من بعده..

لماذا راجت فكرة النواة الصلبة؟

لأنها تتفق مع الحالة النفسية التي سيطرت– ولا زالت تسيطر– على الإسلاميين، كان–ولا زال– الكل يتعجل استعادة الحياة الإسلامية/الخلافة الإسلامية سريعًا، ينظرون للواقع المنحرف ويريدون التخلص منه سريعًا. فتكوين فئة مؤمنة لا يحتاج لكلفة من وقت أو جهد، فيستطيع

من ينشط أن يكوِّن فئة مؤمنة في سنوات قليلة وخاصة أنه لا يشترط غير تصحيح الاعتقاد كما يراه الداعي إلى الفئة المؤمنة، ويمكن تصحيح الاعتقاد من خلال عدد قليل من جلسات النقاش المعرفي ما يقال له "الدعوة الفردية".

وقد بسطت هذه النظرية الأمور وسهلتها على الجميع فنشط من شاء وكون (فئة مؤمنة) ثم تضخم الأمر وتحولت إلى كتل متصارعة في مستويات شتى: فكرية (اختلاف عقدي)، وعملية (الصراع على المساجد مثلًا). ولك أن تتأمل في رؤوس التكتلات الصحوية التي ظهرت بعد سيد قطب ستجد أنهم جميعًا سادوا قبل أن يتعلموا.. جلهم صنف وأسس كيانًا وهو طالب جامعي، ويفاخر بذلك!

التقيت مرةً أحدهم، وحين عرفني كأنه ظفر بغنيمة.. يريد أن يصحح لي عقيدتي، وراح يتحدث عن ما لا يسع المسلم جهله من أمور الاعتقاد حسب ما يرى، وبعد أن فرغ **حدثته باثنتين: الأولى: أن ما يراه هو مسلمات عقدية يختلف معه فيها أقرب الناس إليه من الصحوة عمومًا أو السلفية على وجه الخصوص، ما يعني أنها حالة من التمذهب وليست حالة من (صحة الاعتقاد). والثانية: أن أغلب المنتسبين للصحوة لا يمتلكون شرعية التحدث باسم الدين للعوام** ولذا ينحصر خطابهم ضمن فئة قليلة من الناس وينتهي الأمر بحالة من التحزب/ التشيع ثم الصراع بين المتحزبين، ولك أن تستحضر الخلاف بين السلفيين أنفسهم على المساجد وغير المساجد، فضلًا عن الخلاف مع غيرهم.. !!

سيد قطب والسؤال الأصوب!!

خمدت التجربة الأولى للصحوة الإسلامية في مصر (نسخة الأستاذ حسن البنا) بعد أن قمعها النظام الملكي، وخمدت الثانية (نسخة يوليو 1952) بعد أن قمعها النظام الناصري. وانتهى الأمر بالجيل الأول من الصحوة الإسلامية في مصر خلف جدران الإهانة والحرمان (السجون). وفي ظلمات السجن تساءل المعذَّبون– حسب رواية الأستاذ محمد قطب في بعض محاضراته– عن سبب تحول الجماهير من الحماسة والتأييد للحركة الإسلامية إلى الحماسة والتأييد لعبد

الناصر وهو يحاربهم ويقتلهم؟ وكانت الإجابة يومها- حسب رواية الأستاذ محمد قطب أيضًا- هو الخلل العقدي.. أن الإيمان لم يتمكن من قلوب هؤلاء. ومن هنا اتجه فصيل من الحركة الإسلامية، عرف بالقطبيين بعد ذلك، إلى تصحيح العقيدة، وتبني فكرة مفادها أن شرط النصر هو تحقيق الإيمان بالله واليوم الآخر وأن الشرك- أيًا كانت نسبته- يقف حائلًا دون تحقيق النصر والتمكين في الأرض، وأن الذين لم يصححوا عقيدتهم جاهليون لم يهتدوا بهدى الله.

مثلت هذه المقولة إطارًا نظريًا لفهم السيرة النبوية وفهم الواقع والعمل على تغييره، ومن ثم تحرك أصحاب هذه المقولة للبحث عن أدواتٍ لتنفيذ الفكرة، فكانت أداة التنفيذ التي اهتدوا إليها هي البدء في تكوين (النواة الصلبة/ الفئة المؤمنة)، التي تتربى على العقيدة الصحيحة وتنمو كالزرع حتى تكوِّن مجتمعًا مسلمًا يزاحم المجتمع الجاهلي ويبتلعه. ومن خلال منظور (الفئة المؤمنة) قرأ الأستاذ وأحباؤه السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، فنظر إلى جيل الصحابة- رضوان الله عليهم- وسماه (جيل قرآني فريد)، يقول: تفوقوا لأنهم تلقوا فقط من الوحي، وتفوقوا لأنهم تلقوا الوحي للتنفيذ، وأن من فعل مثلهم صار حاله كحالهم. وأكمل أخوه (الأستاذ محمد) فذكر أن لا فرق بيننا وبين الصحابة فإن كان شخص الرسول قائمًا بينهم فإن السنة النبوية بيننا كما هي ونص القرآن بيننا كما هو، فلا شيء يمنعنا- حسب قوله- من أن نكون مثلهم!! ولا أدري كيف ومعلوم أن الصحابة أنفسهم- رضوان الله عليهم- اقتتلوا بعد وفاة النبي، صلى الله عليه وسلم؟؟!!

وجد سيد قطب ضالته في كتابات عبد الأعلى المودودي التي تتحدث عن ضرورة تصحيح المصطلحات الأربعة (الإله والرب والدين والعبادة) فراح يشرح ويفصل، هو والأستاذ محمد قطب، المفاهيم التي ينبغي أن تصحح؛ ووجد القطبيون ضالتهم في السلفية النجدية (أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله)، تلك التي لا تكاد تتحدث عن شيءٍ آخر غير التوحيد (تصحيح الاعتقاد)، وأضافت الدعوة السلفية النجدية بُعدًا آخر وهو الاهتمام بالتفاصيل، باعتبار أن البدعة بدرجاتها المختلفة مرفوضة كلها، وباعتبار أن النكير على المبتدعين مقدم

على كل شيء؛ وحدث تحالف ضمني بين الرؤية القطبية والرؤية السلفية النجدية بعد الطفرة البترولية وتأييد السياسي الخليجي للقطبيين كمتمردين على خصمه السياسي (النظام الناصري)، فاستخدموا في سياق كشف ظلم النظام الناصري وتعديه على الدين والحريات الخاصة، بمعنى أن الحالة القطبية تحولت من فاعل يستهدف التغيير في اتجاه استئناف الحياة على قواعد الشريعة إلى موظفٍ في سياق الصراع السياسي بين النظم العربية التقدمية والرجعية.
(شرحت هذا في مقالين بعنوان: التوظيف السياسي للدعوة السلفية).

وراقت فكرة الأستاذ سيد قطب لبقايا الإخوان، فقد كانت الفئة المؤمنة هي هي بأم عينها النسق المغلق (الجماعة المنظمة) التي بدأت بها تجربة الإخوان الأولى. وراقت الفكرة لطليعة الجهاديين في مصر فقد اشتدوا إلى محاولة الانقلاب العسكري بخلايا صغيرة في العدد (فئة مؤمنة). وراقت فكرة قطب للذين صبوا غضبهم على عوام الناس مع السلطة فكفروا الجميع وطالبوا بالهجرة والخروج على المجتمع والسلطة.

كانت فكرة الفئة المؤمنة شديدة الإغراء للجميع، كل نظر إليها وأُعجب بشيءٍ منها. منهم من استحسن أنه من (الفئة المؤمنة) ذات العقيدة الصافية، وهو معنى ينطوي على عزة واستعلاء وشعور بالتميز؛ ومنهم من استحسن أن النصر لا يحتاج لأكثر من عددٍ من الجلسات الفردية وتصحيح المفاهيم لدى قلة قليلة كسببٍ وحيدٍ-أو رئيسي- للنصر؛ ومنهم من استحن العكوف ونقد المخالفين وتمزيقهم بدعوى تصفية المناهج التي ستربى عليها الفئة المؤمنة، ومنهم من استحسن الاجتماع في البيوت سرًا والتحدث مع الخلان والأصفياء كأسرةٍ واحدة تفعل ما لا يفعله غيرها، ومنهم... وقد قدمت في المقال السابق أن كل الذين بعد قطب خرجوا منه حتى الذين يرفضونه ويتطاولون عليه!!

حين تضع تاريخ الصحوة الإسلامية الحديثة بين يديك وتعيد النظر فيه مرة بعد مرة تجد أن ثمة **عجلة فيما يتعلق بالنظرية والفكر**. تظهر فكرة من شخص له احترامه وتقديره فيندفع لها

الناس؛ وتصبح مسلمة ونظرية كلية لا يناقشها أحد؛ وينحصر التنظير –بعد ذلك– في التفاصيل والدفاع عن الفكرة الكلية.

عدم دقة السؤال البحثي الذي ذكره الأستاذ محمد قطب أوجد خللًا في النظرية وخللًا في التطبيق!!

لم تكن الجماهير خلف الإسلاميين ثم تخلت عنهم. غير صحيح. من حيث الكم ومن حيث المحتوى. فما قبل يوليو1952 هو العصر الليبرالي الاشتراكي في مصر وما حولها، وعامة الجماهير كانت حول الوفد وغيره، أو على الأقل لم يكن الناس كلهم خلف الرؤية الإسلامية؛ وحتى أولئك الذين احتشدوا خلف الإسلاميين يومها وإلى اليوم لم يحتشدوا طلبًا لتطبيق الشريعة وإنما بحثًا عن أغراض خاصة بهم تتعلق بالمأكل والمشرب، فالجماهير مستقلة تمامًا في حركتها، دوافعها وأهدافها لا علاقة لها بالمشروع الصحوي، واحترامها للإسلاميين وتأيدها لهم بعض الوقت يكون لأهدف أخرى لا علاقة لها بالمشروع الصحوي. وليتنا وقفنا على حركة الجماهير ندرسها ونستخلص منها الدروس كما فعل (جوستاف ليبون) في كتابه سيكلوجية الجماهير. ولكننا– مع كثرة الصفعات التي تلقيناها من الجماهير وغيرها– لم نقف نتأمل ونستخلص الدروس والعبر، ولذا يتكرر ذات الدرس على ذات الجيل مرة بعد مرة ولا يفقهون!!

صلاح حال الناس بتدابير عملية، والمجتمعات تتحول بفعلٍ ممتد على ظهر سنين طوالٍ من نخبة متخصصة في شتى المجالات، ولذا فإن الحركة العلمية التي تكونت في عهد التابعين لم تضعف حين ضعفت الخلافة العباسية، بل ظلت تتطور مستقلة عن السلطة نظرًا لوفرة رأس المال النخبوي في المجتمع في مجالات شتى. وكذلك: ظلت المجتمعات متمسكة بقيمها وأخلاقها لقرون من الزمان بعد أن ضعف السلطان، فكان ينبغي أن يُفهم أن الطريق طويل وأن نقطة البدء في المعالجة الصحيحة لواقع الناس من خلال نخبة متخصصة تباشر حياتهم الخاصة وتحاول أن تعالجها في سياق مجتمعي، لا من خلال قلة قليلة تستعلي على المجتمع وتصفه بالجاهلي؛ وتظن أن تصحيحها لعقيدتها يكفي لأن تستلم السلطة والمجتمع معًا!!

وكان الخلل في الجهل بالتحولات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، وأن الأمة تتشظى جغرافيًا بعد أن تشظت ثقافيًا تحت مسمى (الاستقلال). فقد قُسمنا إلى دويلات صغيرة بدعوى التحرر من الاحتلال الغربي. وتغيرت صيغة الحكم إلى (الدولة القومية) وهي عقيدة جديدة شديدة الإحكام والقسوة على كل شيء، وأنها هي التي تصارع الصحوة وصرعتها مرتين (النظام الملكي والنظام الناصري)، وأن علينا أن نقف ونعيد النظر فيما نواجه.

كان علينا أن نسأل: كيف انتصر الخصوم على الصحوة؟

كيف أجهض الغرب حركة التجديد في الأمة وحوَّل مسارها لتسير خلفه وهي تدعي الرشد والاهتداء بنور النبوة؟!

وكان الأحرى بالذين جاءوا من بعد سيد قطب أن يتساءلوا: كيف انتصر الخصوم مرة بعد مرة على (الفئة المؤمنة) التي لا يشك في إخلاصها؟!

ولكن سؤالًا هكذا لم يطرح. بل ظل القوم يعاندون ويستخفون بالتحديات الخارجية: النظم السياسية للدولة القومية والنظام الدولي. ويتحدثون عن انهيار الغرب. وقد كان الغرب يومها يمر بأفضل مراحله على مر التاريخ: جمع الله له أسباب القوة المادية واتحاد الكلمة تحت قيادة فتية (الولايات المتحدة)؛ وظل القوم يستحضرون صورة النموذج المثالي للدعوة: قلة قليلة من المؤمنين يجتاحون العالم شرقًا وغربًا، ويحاولون استعادة هذا المشهد من جديد. والذي أفهمه أن السيرة النبوية نموذج مثالي يجد فيه كل أحد أسوة (نموذج عملي للتشبه به) فالفقير يجد في حال النبي-صلى الله عليه وسلم- أسوة، وكذا الغني، والمنتصر، والمهزوم، ومن وفقد ولده، ومن حضر ولده.... والذي أفهمه أن مراحل البعث والتجديد في الأمة لم يكن شرطها صفاء الاعتقاد فكثير ممن نهضوا يندرجون تحت وصف (مبتدع) بمقاييس القطبيين والنجديين!!

السلفيون والوعي بعد يناير 2011

بعد رحلة على ظهر الأيام كشفتُ فيها عن سياقٍ متصل خلاصته أننا منذ قدم الاحتلال الغربي ونحن **لا** نفهم ما يحدث. فقط **نفهم ما قد حدث**. وجاءت بعض الردود من كرامٍ

أفاضل فيها: أن هذا ينطبق على الذين من قبلنا أما نحن فنفهم جيدًا ما يحدث. **فهل حقٌ ما يقول هؤلاء الأفاضل؟، هل حقًا يفهم الحضور ما يُفعل بهم، أم كالذين من قبلهم؟!**

ولا داعي للمقدمات، دعني أعرض مشهدًا من عشرات المشاهد التي تتزاحم في خاطري تريد أن تمثل بين يديك شاهدةً على أن الحضور كالذين من قبلهم، يفهمون ما حدث بعد أن يحدث وينتهي أثره.. على أن الحضور لا يمتلكون إلا الرفض والنية الحسنة في التغيير للأحسن، وأتحدث عن المجموع لا عن الجميع، فدائمًا ثمة من يفهم ويؤسس لواقع جديد.

السلفيون في المشهد الثوري. وهم يهتمون بطلب العلم ونشره، ولا ينفكون من الحديث عن "فهم الواقع". دعنا **نتفحص مشهدهم كحالة على أن لا وعي إلا بما قد كان**.. على أن مكر الخصوم يمر مرَّ السحاب ونحن تحته فرحين مسرورين نظنه غيث ورضوان ثم هو ريح تدمر كل شيء بأمر ربها...!!

أجمع السلفيون قبل يناير على رفض المشاركة السياسية. بعضهم أحجم عنها تحريمًا لها وبعضهم أحجم لعدم جدواها؛ وحين بدأت نذر الثورة تتجمع في الأفق لم يشاركوا ولم يعلنوا تأييدهم باستثناء الشباب. وشارك الشباب لأنهم شباب مندفعون. ينطلقون من حماسة لا من تنظير وعقلانية في الغالب. وبعد رحيل مبارك أقبل السلفيون وشاركوا في العملية السياسية: أسسوا الأحزاب على قواعد الديمقراطية! وتنافسوا مع بعضهم منافسة حقيقية!! وتحالف بعضهم مع "عدوهم" ضد "إخوانهم"!!! ودخلوا مجلس الشعب الذي كانوا يكفرونه!!!، وساروعوا لبرامج "التوك شو" وأصبحوا نجوم شاشات وواجهات اجتماعية، وتقدموا صفوف المرشحين للرئاسة **فهل كانت هذه القفزة المفاجئة بين الضدين عن وعي وبصيرة؟!**

تأمل معي في هذه المشاهد:

لم تشارك سلفية الإسكندرية في أحداث "يناير"؛ وفي أول ظهور لها بعد أن رحل مبارك رفعت لواء "الهوية". ثم تبين أن الهدف من إعلان الهوية هو تقسيم صفوف "الثورة" إلى إسلاميين وعلمانيين، بل وتقسيم صفوف الإسلاميين أنفسهم إلى مدافعين عن الهوية ومساندين لأعداء

الدين.. أولئك الذين قدَّموا الحريات على المطالب الدينية. ولم تكد تبرح الأيام مكانها حتى بدَّلوا وغيروا وتحالفوا هم مع المخالفين هوياتيًا (جبهة الانقاذ). فهل كان هؤلاء، وهم عِراض غِلاظ في حس من يشاهد، يفهمون ما يحدث؟، أم دُفعوا إلى ما لا يفهمونه إلا بعد حدوثه. **أو يفهمونه ولهم فيه مآرب أخرى؟!**

وفي القاهرة كان عامة السلفيين يميلون إلى المنهج القطبي، بمعنى تحريم الديمقراطية على مستوى المبادئ وعلى مستوى الأدوات، ويسخرون من الديمقراطية ومن يمارسها، وذات مساء طُلب منهم المشاركة في العملية السياسية، فأقبلوا مسرعين، وأسسوا الأحزاب. حزبًا، ثم حزبين، ثم ثلاثة وأربعة وبدأ التكاثر الميتوزي (متتابعة حسابية:2، 4، 8، 16،،،) للأحزاب، وأعرف أحدهم من فئة "عصبي المزاج/ سريع الاشتعال"، لم يجد حزبًا يترأسه، فجلس مع نفسه واختار اسمًا لحزب متوهم ليس له وجود إلا في صدره، ثم أعلن نفسه رئيسًا لهذا الحزب (حزب تحت التأسيس)؛ ورآه آخر مثله (عصبي المزاج ..سريع الاشتعال) فأعجب بصنيعه فقلده، ولو طال بهم المقام في ساحة الديمقراطية فلربما رأينا عشرات من هؤلاء، كما هو حال الأحزاب الشيوعية مثلًا.

واسأل معي:

ما الفرق بين الأحزاب السلفية؟!.. على أي خلفية تمايزوا؟!!

ولم لم يشكل التيار الإسلامي كله كيانًا واحدًا؟!

ضع المشهد بين يديك وأَعِدْ النظر فيه مرة بعد مرة، وسل معي: **هل هؤلاء أهل وعي؟!؛ أم مزيج من الجهل بالواقع وحب الذات؟!**

لن تجد غير هذه الإجابة التي توصلتُ إليها بعد إعادة النظر أكثر من مرة في حالهم من فوقهم ومن بينهم: **بحثٌ عن الذات في إطار تدين، وهو سياق مضطرد في ساحة المتدينين، فما حدث من منافسة في ساحة الديمقراطية امتدادٌ للمنافسة في المساجد.**

وإذا تركنا السلفيين وذهبا للشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل، وهو حال وسط بين السلفية التقليدية والإخوان،: هل مثّل حالة من الوعي بالخصوم ومكرهم؟!

إذا نظرت للدائرة الداخلية (داخل مصر) فقد كان يعي جيدًا أن ثمة من يمكرون، وأشار إليهم، وانتصب في وجههم، ولكن: غاب سؤالٌ: **هل يقدر الشيخ على قفز المفازة بالفقراء والمساكين؟، هل يقدر على خوض غمار المواجهة بالمبعدين عن كل أسباب القوة؟!، هل كان من العقل أن يواجه بالجماهير دون أدنى أدوات القوة؟!**، هل كان من العقل أن تحسب الحسابات على مستوى قطر واحد في عالم متماسك ومترابط ويدار برأس واحدة؟

أجابت الأيام بأفعالها المؤلمة المرّة. وتبين بوضوح أن الجماهير إحدى أدوات الفعل، وتستدعي للمشهد مؤقتًا ثم تُخرج رغمًا عنها وإلى حيث لا تريد. وقد أسهبت في هذا أكثر من مرة (انظر للكاتب: ثورة.. تاني؟!).

إن مشهد الشيخ حازم يحتاج لدراسة من عدة نواحي، أهمها:

أولًا: موقف السلفيين منه، وكيف أن التكتلات السلفية نفَرت ونفَّرت عنه، ولم يتبعه إلا عوام السلفيين وقلة من خواصهم، وكثير من هذه القلة كان طامحًا في مغنم يحققه من الاكتساح الجماهيري للشيخ، وقد اختلفوا عليه واستداروا له واستعدوا لمنازعته قبيل الانتخابات البرلمانية، وبدأ الحديث عن تسفيه رأيه وصنعه من داخل الدائرة القريبة جدًا منه، وإن كذبوني تحدثت بالأسماء، وأرجو أن لا أضطر لذلك.

ثانيًا: أين مؤيدو أبو اسماعيل، مع كثرتهم؟، وبالتالي **ما السبب الرئيسي في التأييد؟** ما الذي جمّع الناس سريعًا ثم انصرفوا كأن شيئًا لم يكن؟!

وقد تكون الإجابة على هذا السؤال في مثالية الخطاب الذي تبناه الشيخ حازم، وهذا يأخذ البسطاء من الرجال **وعامة** النساء بعيدًا، فالبسطاء (مهما كان رقيهم التعليمي) لهم عقلان: عقل جمعي وعقل فردي، ويتحركون سريعًا للعقل الجمعي أو للخيال. وجرب أن تحدث زوجتك، أو طفلك- بأنك حين تمتلك مالًا ستشتري لها سيارة فارهة، وتسكنها فيلا واسعة،

وتذهب بها لمكة والمدينة تتسوق وتسكن الفنادق وترى فخامة البناء في المسجدين في كل عامة مرة أو مرتين، ستصدقك وتنتشي وتدعو لك وإن كانت تعلم فقرك وقلة وفائك. وحين يواجهون الواقع يهربون للماضي يتحدثون عنه بحنين العشاق. وللأسف هؤلاء أكثر مَن في المشهد. وصوتهم عالٍ. والعقلاء تائهون بين الأقدام. هذا ما حدث مع أبي إسماعيل: **طرحٌ حالم (يوتوبيا)، فنصرةٌ كلامية من الحالمين الطامحين، فواقع شديد الألم. ولازال يستحضر من باب أحلام اليقظة، ولا أحد يريد أن يدرس الظاهرة ويستخلص منها العبر. وقفوا عند اللحظة التي استعذبوها ويريدون الرجوع إليها، والله يقول:** (وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ) (محمد:4).

ويضاف إلى العقل الجمعي الذي يسيطر على الغالبية في وقت الأزمة **أن أغلب المتدينين يعظمُ الموقف الرافض دون أن ينظر لتبعاته، يعظم المقاومة وإن كانت ذات أثر سلبي، ولا يمتلكون رؤية لفعل ممتد.**

ثالثًا: مسئولية أبو اسماعيل عن دفع الحالة الإسلامية للمواجهة الصريحة مع العلمانية بأذرعها المختلفة فكان ما كان. إذ لم يكن الإخوان (وهم رأس الإسلاميين يومها) ينتون الترشح للرئاسة أو حيازة أغلبية في البرلمان.

رابعًا: طبيعة الشخصيات التي قربها أبو اسماعيل منه، وهو شيء يتحدث عنه الجميع في مجالسهم الخاصة.

وإن الذين يقولون بزيادة الوعي عند أبناء الجيل يتكئون على ما يرونه من زيادة في تدفق المعلومات، وكأن كثرت المعلومات يؤدي إلى إرتفاع الوعي، وغير صحيح. فعمليًا نُزعت البركة من أدوات المعرفة، بفساد القائمين عليها. فالتطور في الأدوات التقنية أدى إلى ربكة معلوماتية، وأدى إلى شغلٍ بما قلّ- أو انعدم- نفعه، ولذا فقدنا العمق والسكينة، وكثر اللهو والعبث.. بعدنا عن الجد.. إلا قليل.

شيء مهم في التفسير والتحليل:

المعنيون بتفسير الظواهر السياسية في الأكاديميات لا يعطون العوامل النفسية كبير اهتمام، والسبب– في الغالب– حضور المدرسة السلوكية التي تبحث عما يقاس رقميًا (التحليل الإمبريقي)، والسبب هيمنة المناهج العلمانية الوضعية التي لا تؤمن بغير الماديات (ما تراه بعينها) وتكاد تجحد الضمائر وما انطوت عليه الصدور. تقول الوضعية: الكل خلف مصلحته. وهذا صحيح، ولكن: المصلحة يحددها بُعد نفسي.. شهواني أو عقدي، ما يعني أن البعد النفسي هو الأساس في تحليل الظواهر السياسية والاجتماعية، فالاختلاف والشقاق سببه في الأساس أمراض نفسية لا غياب الحقيقة أو التباسها، يقول الله تعالى: (وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ)(الشورى: 14)، فالفرقة جاءت بعد العلم والسبب هو البغي. وفي قوله تعالى: (وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيم) (آل عمران:105) قدَّم الله الفرقة على الاختلاف مع أن الذي نراه بأعيننا في الواقع غير ذلك ليبين لنا أن أمراض النفوس هي السبب. يقرر أحدهم أن يفترق ويعزم على ذلك، ثم يظهر خلافًا يبرر به فرقته. فالخلاف أداة في الغالب والمرض الحقيقي هو مرض النفس، ولذا اتجه القرآن الكريم للقلوب يداويها بترهيبٍ وترغيب وربط كل شيء بالله وما أعده في الآخرة للمتقين والعاصين. فإلى القرآن.. مأدبة الله. إذ لا بد من سلامة القلب مع سلامة العقل كي نحصل على وعي صحيح، (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰب) (الزمر:18).